الحياة الثقافة والاجتماعية عند التابعين

د. يوسف العزوزي*

سلم البحث في ١٤٤٧/٣/١٢هـ اعتمد للنشر في ١٤٤٧/٤/١٣هـ

ملخص البحث:

عصر التابعين مرحلة زمنية مباركة من خير العصور وأفضلِها، مثل صلة الوصل بين حقبة الصحابة السابقة وجيل أئمة المذاهب الفقهية اللاحقة، مشكلا كيانه مستجيبا للمعايير الإسلامية التي تلقفها ومتفاعلا مع الانفتاح الحضاري الذي فرضته الفتوحات وأملاه التوسع وامتزاج الثقافات وتداخل الحضارات إذ ذاك، فانتقل في جزء منه من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر والتمدن والتطور عبر مختلف الميادين والأصعدة، ولم يكن الجانب العلمي الثقافي والاجتماعي أيضا في منآى عن هذا التطور والتقدم، بل كان من صميم ذلك.

Summary:

The era of the Followers is a blessed period of time, one of the best and most excellent of ages. It represented a link between the era of the previous Companions and the generation of imams of the subsequent schools of jurisprudence, forming its entity in response to the Islamic standards it embraced and interacting with the cultural openness imposed by the conquests and dictated by expansion, the mixing of cultures and the intermingling of civilizations at that time. It moved in part from the stage of nomadism to the stage of urbanization, culture and development across various fields and levels. The scientific, cultural and social aspect was not immune to this development and progress, but rather was at the heart of it.

المقدمة:

يعتبر عصر التابعين مرحلة زمنية مباركة من خير العصور وأفضلِها، وكيف لا وهو الذي مثل صلة الوصل بين حقبة الصحابة وجيل أئمة المذاهب الفقهية، فاشتمل على العديد من المواقف والعبر التي يقف الإنسان أمامها مذهولًا مشدودا من عظمة أصحابها ونُبل أخلاقهم وسمو مقامهم، ولا عجب في ذلك فهم الجيل الذي تربى على يد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ومعه بدأت تظهر بوادر المجتمع الجديد، حيث إنه أعاد تشكيل نفسه مستجيبا للمعايير الإسلامية التي

* حاصل على الدكتوراه، في أصول الفقه والمقاصد، من كلية الشريعة بفاس، المغرب.

تلقفها أصحابه ومتفاعلا مع الانفتاح الحضاري الذي فرضته الفتوحات وأملاه التوسع وامتزاج الثقافات وتداخل الحضارات إذ ذاك، فانتقل في جزء منه من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر والتمدن والتطور عبر مختلف الميادين والأصعدة.

ولم يكن الجانب العلمي الثقافي والاجتماعي أيضا في منآى عن هذا التطور والتقدم، بل كان من صميم ذلك.

فبعد أن كانت دائرة العلوم محدودة متعارفا عليها لا تُتجاوز إلى ما عداها إلا لماما، ظهرت بوادر الانفتاح على علوم أخرى وبرز التدوين وازداد نشاط الحركات العلمية، وتنوع الإنتاج العلمي يومئذ تنوعا شمل مختلف العلوم والفنون، فاعتنوا بها وأعلنوا تأسيس عدد منها ودققوا معانيها ونقحوا مصطلحاتها وقعدوا قواعدها وجمعوا أجزاءها وأركانها ضمن مجلدات وكتب كانت باكورة تلك العلوم والفنون.

وقد جاءت هاته الورقات لتصوير أجزاء من الحياة العلمية الثقافية والاجتماعية عند التابعين، وللإجابة عن جملة من المشكلات، على غرار:

- ما هي التحولات التي شهدها المجتمع العربي في هذا العصر؟
- وما العوامل التي أسهمت في الحركة العلمية والثقافية؟

وقد اعتمدت لتصوير وعرض تلك المشاهد من عصر التابعين المنهج الاستقرائي.

الطفرة الثقافة والحركة العلمية في عهد التابعين[1]:

ولما كانت الكتابة عموما كـــكتابة الحديث والفقه والسير والتاريخ ـــوتدوينها يزداد شيئا فشيئا وباستمرار في كل عقد من عقود القرن الاول، وكانت الكتابة في العصر النبوي على غير الصورة التي وجدت بها فيما بعد مع التابعين ومن بعدهم، وربما كان ذلك كذلك لقلة الكاتبين، أو لاحتمال عدم حاجة الصحابة

[1] التابعي: من لقي الصحابي مؤمنا بالنبي صلى الله تعالى عليه وســلم، ولــو تخللــت ردة فــي الأصح. ينظر شرح نخبة الفكر للقاري ح. أبو غده ط. دار الارقم ص ٥٩٥

إلى الكتابة، لأنهم في الجوار النبوي، فهم يتلقون الفقه والحديث من منبعه غضا طريا عن رسول الله ويعملون به، ولنهيه صلى الله عليه وسلم أصحابه عن كتابة الحديث في بداية الامر وقبل جمع القرآن.

ففي الصحيح عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه".[١]

لكن وجدناها في هذا العصر بدأت تزدهر شيئا فشيئا وظهرت بوادر التأليف والتأسيس لبعض العلوم مع صغار الصحابة وكبار التابعين، لأنهم لم يحضروا الحياة النبوية كلها، ولأنهم قد تأخر زمنهم وكثر التابعون أيامهم واختلط الناس فاحتاجوا إلى من يقرب لهم تلك العلوم.

فبعدما كان التدوين زمن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة عبارة عن صحف صغيرة في مجمله، فإن عصر التابعين شهد أنماطا أخرى وبلغ بالمكتوب أن يسمى طرسا وكتابا بعد أن كان صحفا وسطورا، وصلنا بعضها عن طريق الروايات، وإن لم يصلنا نصها بشكل مفرد.

فضاعت تلك المؤلفات ولم تصل إلينا،كما ضاع غيرها من كتب التفسير التي أُلِّفت بعد عصر التابعين، مما نسب إلى عدد من الأعلام دون العثور عليه كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وغيرهم ممن فقدت طروسهم وغُيبت تآليفهم وتلك آفة كل مكتوب.

وقد روى الامام الذهبي في السير عن أبي الزناد قال: قال عروة:"كنا نقول: لا نتخذ كتاباً مع كتاب الله، فمحوت كتبي، فوالله لوددت أن كتبي عندي".[٢]

ولم يأل الخلفاء والأمراء جهدا في تشجيع هاته المسيرة الثقافية والحركة العلمية وتعزيزها والدفع بها قدما، فاهتموا بحسن خدمتها وقربوا العلماء والفقهاء الذين حظوا بصحبة كثير من علماء الصحابة ونخبة علماء التابعين، واستفادت الدولة منهم وأفادوا، وكانوا يكرمونهم ويؤيدونهم في دفع نشـــــاط الحركة العلمية،

---

[١] صحيح مسلم ح. محمد أفندي وغيره ط. دار الطباعة العامرة سنة ١٣٣٤ه رقم ٣٠٠٤

[٢] سير أعلام النبلاء للذهبي ط. بيت الافكار ج٤ ص٤٣٦

فتنوع الإنتاج العلمي يومئذ تنوعا واسعا في مختلف العلوم.

- ولا أدل على ذلك من جمعهم قواعد العربية بعد أن فشى اللحن بسبب اختلاط العجم بالعرب، وتأسيس مدارس للتفسير بعدد من الأقطار والجهات كالمدينة والعراق "ومكة، والتي كان على رأس علمائها عبد الله بن عباس"[1]رضي الله عنهما،-يقول ابن تيمية رحمه الله: "وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس".[2]- فكان الاهتمام منصبا على بيان معاني مفردات القرآن الكريم من خلال أقوال العرب وأشعارهم، وإبراز جوانب كثيرة من علوم القرآن كالقرآءات والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول...ومنذ عصر التابعين وجد في المدينة المشتغلون بكتابة المصاحف وتفسير الآيات وشرح السور وبيان الأحكام والحكم، كابن المسيب ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ وعروة وسالم وغيرهم ممن كان بالمدينة.

- واهتمامهم بالتاريخ والسير من خلال جمع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه وتاريخ المرحلة النبوية المطهرة، وهو أمر لم يكن معهودا، نعم كانت بعض الصحف التي تؤرخ لوقائع وصور محدودة مضمنة مع بعض القضايا الاخرى ولم تكن مستقلة ولا شاملة، لكن التأليف الشامل والمستقل في السيرة والتاريخ لم يعرف بتلك الصورة إلا في عصر التابعين مع موسى بن عقبة وعروة بن الزبير ومحمد بن اسحاق.

يقول ابن سعد في الطبقات:"محمد بن إسحاق أول من جمع مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وألفها".[3]

- وكذا اعتناؤهم بجمع الحديث النبوي الشريف بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعد أن ظهر الوضع بفعل التوسع والاختلاط والصراعات السياسية والتعصـــب الطائفي، فلم يؤمن الكـــذب جراء ذلك، وخشي دروس العلم

---

[1] مباحث في علوم القران لمناع القطان ط٣ ٢٠٠٠م مكتبة المعارف – الرياض ص ٣٤٨

[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية ط. طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ســنة ٢٠٠٤م ج١٣ ص٣٤٧

[3] الطبقات الكبرى لابن سعد ط. الخانجي ح. علي محمد عمر ج٥ ص١١٧

بموت العلماء الحاملين للحديث الشريف.

فنشطت حركة جمع وتدوين الحديث بعناية الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه، وكتب إلى قاضي المدينة أبي بكر بن حزم:" انظر ما كان من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي، صلى الله عليه وسلم، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً".[١]

وكان محمَّد بن شهاب الزهري، أحد أئمة العصر إذ ذاك، فكتب فرائد فِي علم الحديث، حتى عدّه بعضهم واضع مصطلح الحديث، وجامع الأحاديث والآثار بأمر من الخليفة عمر رضي الله عنهم، وفي هذا المعنى يقول الحافظ السيوطي رحمه الله:

أول جامع للحديث والأثر ابن شهاب آمراَ له عمر[٢]

فاستجاب لطلب عمر بن عبد العزيز، وكان شغوفاً بجمع الحديث والسيرة، بجمع حديث المدينة وقدّمه إلى عمر بن عبد العزيز الذي بعث إلى كل أرض دفترا من دفاتره، وكان لفشو الوضع في الحديث أثر في تأكيدهم على التدوين حفظا للسنة ومنعا للتلاعب بها، فلما أضحى الأمر كذلك مارسوا الدفاتر وسايروا المحابر وذادوا عنها من الشبه المخاطر.

- وفي المجال الفقهي ظهرت مدارس فقهية كان روادها ومرجعها الفقهاء السبعة[٣] بالمدينة المنورة، فتعلموا وتربوا في أحضان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله متحدثا عن فضل هؤلاء الائمة الاعلام ومبرزا مكانتهم: "كان فقهاء أهل المدينة سبعة...إذا جاءتهم المسـألة دخلوا فيها جميعًا، فنظـروا فيها، ولا يقضي القاضـي حتى يرفع إليهم، فينـظرون فيها،

---

[١] القبس في شرح موطأ مالك بن أنس لابن العربي ح.محمد عبد الله ولد كـريم ط. دار الغـرب الإسلامي ج١ ص٩

[٢] ألفية السيوطي في علم الحديث لجلال الدين السيوطي

[٣] ينظر تاريخ التشريع الاسلامي لمناع القطان

فيصدرون".[1]

وفي الجانب الاجتماعي: فإن هذا العصر قد شهد تحولا مهما وحاسما في تاريخ المجتمع العربي بعد أن كان عصر صدر الإسلام ممهدا له ومؤسسا، فانتقل في جزء منه من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر، فوفدت إليهم وُفود حضارات عدة وداخلتهم ثقافات متنوعة وعادات وتقاليد بلغتهم عن طريق التوسع والفتوحات والامتداد الجغرافي.

كما زادت أعداد المشاريع الاحسانية عن طريق الأوقاف والتبرعات التي توسعت مجالاتها وتنوعت، بسبب كثرة الفتوحات الإسلامية وما أغدقت عليهم، فتوفرت لديهم الحوائط والمزارع والحدائق والدور وشتى أنواع الأموال والعقار، حتى صارت للأحباس "هيئات خاصة تقوم على شؤونها وترعاها وتدبر أمرها بعد أن كثرت واتسعت"٢.

فأقيمت المؤسسات الاجتماعية لإصلاح الطرقات والجسور، والمؤسسات الخيرية لتكافل اليتامى وشيدت الجوامع والمساجد والمراكز الطبية وعم الرخاء، حتى قيل إنه لم يبق فقير زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لدرجة أن الأغنياء كانوا يخرجون زكاة أموالهم فلا يجدون يد فقير تنال هذا المال.

ولا يكاد ينصرم العصر الأموي دون أن يفتح أمام القارئ اتجاهين متضادين: أحدهما العادات والتقاليد الاجتماعية والعصبية الموروثة، والآخر الثقافات والأفكار المستوردة، وجزء منهما كبير بعيد كل البعد عن الإسلام وتعاليمه، لذلك نجده لم يلبث طويلا حتى بدأت تطرأ عليه تغييرات جعلته فيما بعد يعيد تشكيل نفسه مستجيبا للمعايير الإسلامية التي بُثت فيه ومتفاعلا مع الانفتاح الحضاري الذي باغته بعامل الفتوحات الممتدة.

كما لا يمكن أن تمر هاته الحقبة دون ذكر نسائها ومكانتهن السياسية

---

[1] كوثر المَعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري لمحمد الخضر بن سيد عبد الله الشنقيطي ط١. ١٩٩٥م. مؤسسة الرسالة ج٢ص٤٩

[2] الوقف في الاسلام تاريخ وحضارة الطاهر زياني ط. المكتبة الازهرية للتراث سنة ٢٠٠٧م ص ٢٣

والاجتماعية والثقافية، وفعاليتهن وتأثيرهن الاجتماعي في المجتمع الجديد.

فقد سايرت المرأة العربية في هذا العصر -خاصة- مجتمعها بكل ما كان فيه وما دخل إليه من حضارات وتأثيرات ثقافية، مما أتاح لها أن تطور فعليا من شخصية المرأة الأموية وتطبعها بطابع خاص، فتراها تشارك في الحياة الاجتماعية والثقافية عن طريق الشعر والشعراء، إذ تقربت إلى الشعراء مستمعة وراوية وناقدة، فكانت سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، أعلم النساء وأظرفهن،[١] وأحسنهن أخلاقا وسيدة زمنها، وكان الشعراء يتوافدون عليها ينشدون بين يديها الشعر بغية نقده والتفضيل بينهم، كما تقربوا إليها/المرأة لتكون مادة خصبة لأشعارهم، واشتركت في هذا نساء الطبقة العليا في الحجاز والعراق وكذا أميرات البيت الأموي كأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك، التي اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، فكانت لها مكانة كبيرة وحظوة عند زوجها فكان يستشيرها في كثير من أمور الدولة، وقد سجل التاريخ معارضتها لسياسة الحجاج بن يوسف الثقافي وتصريحها بعدم رضاها[٢]، وكنتيجة انعكاسية عمل الأدباء والشعراء على تخليد هؤلاء النسوة في أشعارهم وقصائدهم الغزلية والسياسية.

في ظل هذا التنوع الثقافي والاستقلال العلمي والانتاج الفكري المتنوع والنشاط الاجتماعي قرر الخليفة عبد الملك بن مروان تعزيز هذا التفوق الثقافي والاجتماعي ودعم هاته القوة من خلال إيصائه بسحب العملة الاجنبية البيزنطية والفارسية المستعملة، وسك عوضا عنها عملة جديدة مصنوعة من الذهب والفضة نقشت عليها بعض الآيات القرآنية، لتتوالى بعدها معالم الحضارة والمؤسسات الاسلامية الفذة في الظهور والتأسيس كالبريد ونظام الشرطة إذ أصبحت مؤسسة رسمية متعددة المهام[٣] وتشييد السجون لأهل الجرائم وأصحاب الجنايات هاته الصور وغيرها تبرز أن زمن التابعين مثل المجتمع الناضج فكريا والمتمتع بكل مظاهر الأبهة.

---

[١] الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي لعبد الشافي محمد عبد اللطيف وغيره ص٦٨٣

[٢] مروج الذهب للمسعودي ط١. المكتبة العصرية ٢٠٠٥م ج٢ ص١٥٣

[٣] نشأة وتطور جهاز الشرطة إسماعيل النقرش ط١. وزارة الثقافة عمان ٢٠١٥م ص٣٣

خاتمة:

لقد كان عصر التابعين عصر التنوع الثقافي والاستقلال العلمي والانتاج الفكري المتنوع والنشاط الاجتماعي، إذ أوجد لنفسه منهجا ثقافيا وحضاريا مستقلا ابتدأ بتقعيد القواعد والاهتمام بالتأريخ والسير وإبراز حركة جمع وتدوين التراث والارث النبوي للوجود وإنشاء المدارس الفقهية ومراكز الاجتهاد في الفروع، وإعلان هجرة مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر الثقافي والاجتماعي، متفاعلا تفاعلا إيجابيا مع الانفتاح الحضاري الذي باغته بفعل عامل الفتوحات الممتدة ومستجيبا للمعايير الإسلامية التي بُثت فيه غير منسلخ منها.

قائمة المصادر والمراجع

- ألفية السيوطي في علم الحديث لجلال الدين السيوطي
- سير أعلام النبلاء للذهبي ط. بيت الافكار
- صحيح مسلم ح. محمد أفندي وغيره ط. دار الطباعة العامرة سنة ١٣٣٤ه رقم ٣٠٠٤
- الطبقات الكبرى لابن سعد ط. الخانجي ح. علي محمد عمر
- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس لابن العربي ح.محمد عبد الله ولد كريم ط. دار الغرب الإسلامي
- كوثر المَعاني الدرارِي في كشف خبايا صحِيح البخاري لمحمد الخضر بن سيد عبد الله الشنقيطي ط١. ١٩٩٥م. مؤسسة الرسالة
- مباحث في علوم القران لمناع القطان ط٣ ٢٠٠٠م مكتبة المعارف – الرياض
- مجموع الفتاوى لابن تيمية ط. طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سنة ٢٠٠٤م
- مروج الذهب للمسعودي ط١. المكتبة العصرية ٢٠٠٥م
- الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي لعبد الشافي محمد عبد اللطيف وغيره
- نشأة وتطور جهاز الشرطة إسماعيل النقرش ط١. وزارة الثقافة عمان ٢٠١٥م
- الوقف في الاسلام تاريخ وحضارة الطاهر زياني ط. المكتبة الازهرية للتراث سنة ٢٠٠٧م
- ينظر تاريخ التشريع الاسلامي لمناع القطان